فضيلة
د.أحمد عبد العزيز الحداد

عضو مجلس حكماء المسلمين، كبير المفتين، ومدير إدارة الإفتاء، وعضو اللجنة العليا للإفتاء، وعضو هيئة كبار العلماء بدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بإمارة دبي، حاصل على درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية عام 1414هـ من جامعة أم القرى.

فضيلة د. أحمد عبد العزيز الحداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وخلق له الكون ليعيش به في ضوء شرعه القويم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه في تأصيل الدين المتين، وعلى الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعد فإن الإنسانية كلها تنتمي لعائلة واحدة وأصل واحد، فيتعين على الإنسان أن يذكر أصله الترابي وبنوته الآدمية فيسعد بأخيه الإنسان، وإن تعددت قومياته واختلفت شعوبيته وتعددت ديانته، ما دام أن جذره واحد، فلا بد أن يعرف هذه الحقيقة ليعيش مسالما لأخيه الإنسان أينما كان، فإنه له عون وهو له ظهير.

وهذا ما أرشد إليه القرآن الكريم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:1] وأكده النبي المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بقوله: " الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب" إشارة إلى أن العائلة الآدمية يتعين عليها أن تتعارف وتتآلف وتتكامل حتى يتحقق لها الأمن والسعادة فتعيش في أرض الله الواسعة، كل يأخذ منها ما قدر له.

وقد طرأ لهذا الإخاء تنافر وتفان يمقته الله والنبيون، وعلى أرباب الكلمة وحاملي لواء الهداية والتربية أن يقوموا بواجبهم نحو تصحيح مسار الإنسانية في الإخاء والتواد.

وهذا ما يسعى إليه مؤتمر الأخوة الإنسانية الكبير، في بلد التسامح الديني والإخاء الإنساني؛ الإمارات العربية المتحدة التي تسعى جاهدة لنفع البشرية وإحيائها، في الوقت الذي يسعى كثير من أبناء الإنسانية إلى التفاني.

وقد وضعتُ لبنات صالحات في تأصيل الإخاء الإنساني من معين تراثنا الإسلامي، سائلا الله تعالى أن ينفع به ويجعله خالصا لوجهه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

مفهوم الأخوة الإنسانية

تُعرَّف الأخوة الإنسانية بأنها "مفهوم إنساني، اجتماعي يرتبط بالعلاقة بين أفراد البشر، يكون قوامُها الاحترام والإحسان والرحمة. والإنسان لا يختلف عن غيره إلَّا بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتقاكُم﴾

وقد كثر الجدل في مفهوم الأخوة الإنسانية بين قابل له ومندد به..

أما القائلون به فهم يعنون بها النوع الإنساني الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكرمه على كثير من خلقه وميزه على غيره بميزة قابلية العلوم والمعارف المختلفة والانتفاع بها في أمور الدين والدنيا، وهي الأخوة التي وردت على لسان الشرع في الذكر الحكيم والسنة المطهرة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] فإن الآية الكريمة قد

نظمت النوع البشري نظما واحدا في الخطاب حيث نادتهم بوصف الناس ليشمل جميع أفراده من غير استثناء، لتبين لهم أصل نشأتهم الآدمية وأن عليهم مراعاة هذا الأصل العام للحفاظ عليه ونفعه وعدم الإضرار به، ثم يكون التفاضل في مقام العبودية بالتقوى وهي مراقبة الله تعالى في أمره ونهيه والالتزام بشرعه، فمن كان على الجادة التي وضعها الله تعالى لهم كانت له منزلة عند ربه بقدر التزامه بشرعه، وإن لم يكن له ذلك الالتزام كان في محل الإهانة والعذاب.

وقد أكد هذا المعنى آية سورة النساء الأولى – الآنفة الذكر - فإن الآية الكريمة واضحة الدلالة في مخاطبة النوع الإنساني كله، وتذكيره بأصل تكوينه حتى لا يبغي على غيره؛ لأن ذلك الغير هو أخ له في هذا التكوين، فيجب عليه مراعاة هذه الرابطة النسبية بأداء حقوقها وحمايتها من الانتهاك، وإلا كان في محل المؤاخذة.

وقد تكرر تأكيد هذا المعنى في سور أخرى هي الأنعام والأعراف والزمر حيث يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98] ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] ويقول ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6].

وهكذا ترى الآيات تترى في تقرير معنى الأخوة الإنسانية؛ فإنه ما دام قد نشأ مع الآخر من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام وحواء عليها الرضوان، فإنه لا بد من تكريم هذا الإخاء والعمل لصالحه في هذه الحياة، ثم إنهم عند ربهم يختصمون، لا في الدنيا، فإن حقوق الأخوة غير حقوق الربوبية، وكل يسأل حقه ولا يعنيه حق غيره إلا بتكليف إلهي، وهو الذي كلف به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم قد كلفوا بتبليغ رسالات ربهم لإخوانهم من بني قومهم وهم جميع الأنبياء السابقين، أو لجميع العالمين وهو سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد عليه وعلى إخوانه النبيين الصلاة والسلام.

وقد كان الحق سبحانه يصرح لرسله بهذا المفهوم، ويذكرهم به حتى يحرصوا على نفع

أقوامهم، بمقتضى الشفقة الأخوية كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65]

وقال سبحانه ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 73] .

وقال جل شأنه ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85]

في آيات أخرى كثيرة تدل على أن البشر معنيون بمعرفة الله وعبادته كما يبلغهم إخوانهم المصطفون من الرسل عن ربهم سبحانه وتعالى، ومع ما بينهم من التفاوت الروحي، إلا أن ذلك لم ينزع الإخاء الإنساني عنهم، فلذلك كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام تؤدي هذا حق بكل تفان وإخلاص، لأنهم أعرف الناس بالله تعالى وما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم، وللمعرضين من العذاب المقيم؛ فكانوا شديدي الحرص على أقوامهم ليستجيبوا لدعواتهم من الإيمان بالله تعالى وعبادته سبحانه، حتى ينالوا ثوابه وأجره المعد للطائعين، ولكنهم لا يملكون هدايتهم، فالهدى بيد الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وتبقى حقوق الأخوة الإنسانية مصونة، ولا إكراه في الدين، ولا عتب على المسلمين بعد أن بلغوا رسالات ربهم وأدوا واجبهم نحو أقوامهم.

ولربما اشتد حرصهم على إيمان أقوامهم خشية أن ينالوا العذاب المقيم، فيبادرهم الله تعالى بعتابه وإرشادهم لما عليهم بذله دون سواه، كما قال لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36] وقال لخاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56] بل اشتد عتابه له لما كان عليه من فرط الرحمة وكمال الشفقة فقال له : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]

فهذا هو معنى الإخاء الإنساني عند الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وسار على نهجهم سلف الأمة وخلفها، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه في رسالته لمالك بن الأشتر حين ولاه مصر : "وأَشعر قلبك الرحمة للرعيّة، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً، تغتنم أكلهم؛ فَإِنَّهم صنْفان : إِمَّا أَخٌ لك في الدين، وإِمَّا نظيرٌ لك في الْخلق" ثمَّ أوصاه أن يعفو ويصفح عمَّن أساء واجترأ عليه، أو على خاصته فقال : "فَأَعطهم من عفوك وصفحك مثل الَّذي تُحبُّ وترضى أَن يُعطيك اللَّهُ من عفوه وصفحه".

فهذا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته وأبو سِبطيه، يأمر عامله بمعاملة غير المسلمين من أقباط مصر معاملة الأخوة المتساوية مع المسلمين، لأنهم نظراء في الخلق فلهم ما للأخوة في الدين أو النسب، يفعل ذلك كما علمه وتعلمه من منهج رسول الله ﷺ، فقد كان منه بمنزلة الباب لمدينة العلم.

يقول البشير الإبراهيمي في شرح قيم الإسلام الداعية إلى أخوة البشر والإنسانية:" جاء نبي الإنسانية بالمؤاخاة بين الإنسانية، فالإنسان أخو الإنسان ومؤدّى هذه الجملة هو عقد الأخوة بين أفراد البشر بموجب الإنسانية التي هي حقيقة سارية في كلّ فرد، ولا شك أنّ الفهم المغشوش لمفهوم الولاء والبراء يقف حجر عثرة في طريق صناعة التآخي الذي أحوج ما تكون إليه الإنسانية، ولا يمكن فهم الولاء والبراء إلا إذا فرّق المرء بين البرّ والمودة التي جاء الإسلام لتكريسها.

ومما يدل على هذا المعنى ما ورد أن رسول الله صلى عليه وسلم كان يقول في دُبر صلاته : " اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصا لك وأهلي في كل ساعة في

الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله أكبر الأكبر، الله نور السماوات والأرض ، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل، الله الأكبر الأكبر "

فسمى عليه الصلاة والسلام العباد - وهو جمع عبد يشمل كل عبد لله مسلما كان أو غير مسلم برا كان أو فاجرا- سماهم إخوة، كما يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] وهي العبودية القهرية التي يذعن لها كل من في السماوات والأرض، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا *لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 93 - 95].

وهذا ما كان يفهمه المفكرون من المسلمين وغيرهم، كما قال الكاتب الهندي الدكتور محمد يوسف الدين في بحث له بمجلة البعث الإسلامي: "إن نظام الحكم في الإسلام يقوم على الأخوة الإنسانية والعدالة الاقتصادية"

ويقول بعض المفكرين إن مبدأ الإخاء الإنساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الإسلام، ويقول أيضا : "إنه ليس هناك من مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة، مع التسوية بينها في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة .

ويشير المستشرق اللبناني فيليب حتي إلى" أن إقامة الأخوة في الإسلام مكان العصبية الجاهلية (القائمة على الدم والقرابة) للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملاً جريئًا جديدًا قام به النبي العربي ﷺ و تأسيساً على مبدأ الأخوة الإنسانية بين الأجناس والشعوب، حقق النبي ﷺ واقعيّاً لا نظريّاً عملية توحيد مختلف الأجناس في ظل المساواة والعدل الإسلاميين.

ويتحدث المفكر الإنكليزي موير عن الرسالة المحمدية وفق عقيدتها، فيقول :

”ومن عقيدة الإسلام أن الإنسان أخو الإنسان وأن النبي محمدا ﷺ قدم الإسلام كعقيدة دينية وشريعة ظهرت في إطار تنظيم اجتماعي تبلور في الدولة الإسلامية عبر سائر المراحل التاريخية السابقة واللاحقة، سابقاً إلى تحقيق فكرة التعايش بين الشعوب والأجناس والأديان، وإن نظرة واحدة لأول دستور مكتوب في تاريخ البشرية، ونقصد به دستور المدينة الذي وضعه الرسول ﷺ.

فإن هذا الدستور يقدم لنا القوانين السائدة في أول دولة إسلامية قامت بعد الهجرة وحققت التعايش بين المسلمين واليهود والقبائل العربية التي لم تكن تعتنق الإسلام، ومن ثم تطورت جوانب هذا التعايش مع قيام الدولة الإسلامية التي ضمت شعوباً وأمماً مختلفة، حققت بينها الانسجام والعدل والمساواة، بعيداً عن العصبية العرقية أو الاستعلاء الديني.

وهذه شهادات من غير أهله، وكفى بها شهادة، لأن هؤلاء خبروا الإسلام والمسلمين، ورأوا واقعا أخويا يسعد الناس في حياتهم الدنيا التي يتقاسمون خيرها وشرها، وهي مبسوطة للأنام كلهم.

وأما المنكرون لهذا المصطلح فحجتهم أن الحق سبحانه قد قطع الموالاة والأخوة بين المؤمنين وغير المؤمنين؛ لما هم عليه من المحادة لله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، فقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]

فالآية الكريمة تنفي الموالاة والمودة بين المؤمن وغيره؛ لعدم الصلة الروحية بينهما، ولئلا تكون هذه الموالاة حاملة له على تغيير دينه وانحراف فكره، أو إقراره على دين يراه باطلا فيكون راضيا به.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ

أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 144]

فالآية نص صريح في منع الموالاة بين المسلم والكافر أيا كان قريبا أو بعيدا.

وفي الاستدلال بالآيتين نظر بيِّن؛ فإنهما إنما ينهيان عن المولاة التي تقتضي النصرة والتأييد على الباطل الذي يكون عليه غير المسلم، لا مجرد العلاقات الإنسانية التي تقتضي التعاون في القضايا المشتركة في مصالح الدنيا، وذلك ما كان عليه نهج النبوة والخلافة الراشدة؛ فإن النبي عليه الصلاة والسلام الذي تنزلت عليه هذه الآيات الكريمة وأُمر ببيانها للناس على مراد منزلها سبحانه؛ قد أقام جسور الأخوة الإنسانية في القضايا المشتركة بين الناس أجمعين، إلا من حارب وأظهر العداء.

برهان ذلك أنه عليه الصلاة والسلام أسس عقد المواطنة في المدينة المعروف بصحيفة المدينة أو وثيقة المدينة وهي أول وثيقة وطنية للتعايش عرفتها البشرية، عقدها بين المسلمين وبين طوائف المدينة المختلفة، على البر والقسط وحفظ الحقوق، وفقا لتشريع الله تعالى في كتابه في التعامل مع أهل الملل المختلفة التي لا تشن حربا علينا، فقد قال جل شأنه: ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8، 9]

فلذلك كان عليه الصلاة والسلام يعامل اليهود والنصارى على هذا المبدأ فيبيع ويبتاع، ويقترض منهم ويرهنهم، ويأكل من طعامهم، ويتزوج من نسائهم، ويزور مرضاهم، ويهدي إليهم، ويقبل هديتهم... كل ذلك وفقا لكلام الله المحكم ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: 5]

وهذا ما تعنيه الأخوة الإنسانية في الحياة الدنيا، ولا تعني بحال من الأحوال التخلي عن الدين أو الركون إليهم في شيء، فقد كان القرآن الكريم واضح البيان في هذا كما في سورة " الكافرون" التي ختمها الله تعالى بخاتمة بيِّنة فاصلة قال فيها سبحانه ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

فإن القرآن أمر أن تقام عليهم الحجة بالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به سبحانه، فإذا أقيمت عليهم الحجة تُركوا وما هم عليه إن لم يحاربوا المسلمين، لأنه احترم اختيارهم ثم إلى الله إيابهم وعليه حسابهم.

وكم في القرآن من بيان لهذا المعنى وتوضيح له ليتَّبعه المسلمون في تعاملهم مع غيرهم حتى يتعاونوا على هذه الحياة، وأما أمر الهداية للحق فمردها إلى الله تعالى كما قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118، 119] أي للرحمة خلقهم كما ذهب إليه جمهور المفسرين، كل ذلك لأن الله تعالى غني عن العالمين، فلا تنفعه طاعة الطائعين كما لا تضره معصية العاصين، لكنه امتحن عباده بالشرع أمرا ونهيا وتحبيذا وتنفيرا، ليُجزى كل بما عمل في الدار الآخرة، أما الدنيا فليست دار جزاء، فلذلك وضع لها قوانين عادية فمن أخذ بأسبابها نال ما قُدر له منها، ومن لم يأخذ بالأسباب كان عاجزا، فلا يلومن إلا نفسه.

القيم المشتركة بين بني الإنسان

إن الدعوة لإحياء الأخوة الإنسانية هي في الحقيقة دعوة لإحياء القيم المشتركة بين الناس؛

من تناصر على الحق، وتعاون على دفع الظلم، وتكاتف على أمور الحياة ومصالحها، وبذل المعروف للإنسان، وحماية الحقوق والحريات، وغير ذلك مما تواضعت عليه البشرية، وتعده من قيمها النبيلة، وغير ذلك مما تقضيه الجبلة الإنسانية قديما وحديثا، ولا سيما المقاصد الخمسة الضرورية التي لم تختلف الشرائع بشأنها جملة، وإن اختلفت تفاصيل حمايتها وشرائع تطبيقها، وقد شهد النبي ﷺ حلف الفضول في الجاهلية وقبل بعثته، وأثنى عليه بعد النبوة وقال: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفا ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبتُ"

مع أنه كان حلفا جاهليا، أي دعت إليه الحمية الجاهلية، لكنه كان لنصرة الحق ودفع الظلم، عن أي مظلوم كان، فاعتبر النبي عليه الصلاة والسلام ذلك عملا يتفق مع منهج شريعته، فكان إقرارا له وتشريعا لمثله .. وهو ما قرره عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بقوله: " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال:" تأخذ فوق يديه" وقوله ﷺ:" والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" والمعروف اسم لكل ما تعارف عليه الناس مما لا يخالف شرعا ولا عقلا.

فإذا أقامت البشرية الآن تحالفا لمناهضة الفاشية من أي دين كان، من أجل حماية الناس ومصالحهم؛ فحرِيٌّ أن يكون مقبولا، وهو ما اتفقت عليه الأمم وتعاهدت عليه بما يسمى اليوم بمواثيق حقوق الإنسان التي رعتها منظمة الأمم المتحدة، وهي المنظمة التي تضم جميع الدول، واتحدت تحت سقفها على مواثيق ونُظم تحمي الإنسان والأرض والمال وتنظم الحقوق والواجبات، وتعتبر هذه المعاهدات ملزمة لكل من ينتمي لدولة ذات سيادة، فإنه يكون قد أعطى غيره من الأمان وحماية المصالح ما يطلبه لنفسه.

وهذا ما تقتضيه مبادئ الأخوة الإنسانية المنشودة، غير المسطورة بمسمى نظام قانوني، بل هو قانون الأخلاق والقيم، وهي أشد لزوما من القوانين النظامية؛ لأن تلك القوانين

قـد تدخلهـا الاسـتثناءات، أمـا هـذا فـلا؛ لأنـه قانـون إنسـاني يتماشـى مـع طبيعـة الإنسـان وطموحه لحياة سعيدة.

ولذلـك يحافـظ عليـه كل ذي مـروءة، وينكـر انتهاكـه كل ذي عقـل، وهـذا مـا يدعـو إليـه الإسـلام الـذي جـاء بمبـادئ الفطـرة الإنسـانية، ألا تـراه كيـف جعـل إزهـاق روح واحـدة إزهاقـا للنـوع الإنسـاني كلـه؟ كمـا يقـول الحـق سـبحانه: ﴿مِـنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ كَتَبْنَـا عَلَـى بَنِـي إِسْـرَائِيلَ أَنَّـهُ مَـنْ قَتَـلَ نَفْسًـا بِغَيْـرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِـي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعًـا وَمَـنْ أَحْيَاهَـا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّـاسَ جَمِيعًـا وَلَقَـدْ جَاءَتْهُـمْ رُسُـلُنَا بِالْبَيِّنَـاتِ ثُـمَّ إِنَّ كَثِيـرًا مِنْهُـمْ بَعْـدَ ذَلِـكَ فِـي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32]

العيش المشترك في واقع الأخوة الإنسانية

خلـق اللـه تعالـى الخليقـة الإنسـانية لا لحاجتـه إليهـا، فهـو غنـي عـن العالميـن سـبحانه، بـل خلقهـا لمعرفتـه وعبادتـه وعمـارة الأرض واسـتخراج مـا فيهـا مـن الخيـرات التـي قدرهـا فيهـا لنفـع الإنسـان، كمـا قـال سـبحانه ﴿وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّـي جَاعِـلٌ فِـي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً ﴾[البقرة: 30] أي مسـتخلفا فيهـا ليعمرهـا العمـارة المعنويـة بالإيمـان والطاعـة، والحسـية بالبنـاء والزراعـة والصناعة وما ينفع الناس .

كمـا قـال جـل شـأنه: ﴿هُـوَ أَنْشَـأَكُمْ مِـنَ الْأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَـا﴾ [هود: 61] أي جعلكـم عمارهـا لتنتفعـوا بخيراتهـا أنتـم وغيركـم ممـن يكونـون معكـم أو يأتـون بعدكـم، وقـد سـخر اللـه تعالـى كل مـا فـي الأرض للإنسـان كمـا قـال عـز مـن قائـل: ﴿وَسَـخَّرَ لَكُـمْ مَـا فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِـي الْأَرْضِ جَمِيعًـا مِنْـهُ﴾ [الجاثية: 13] وقـال جـل شـأنه: ﴿هُـوَ الَّـذِي خَلَـقَ لَكُـمْ مَـا فِـي الْأَرْضِ جَمِيعًـا﴾ [البقرة: 29] ليعيـش عيشـة هنيـة، يتمتـع بزينـة اللـه تعالـى التـي أخرجهـا لعبـاده والطيبـات من الرزق، ويسعد في دنياه ويسعد غيره.

وكل هـذا الامتنـان هـو للإنسـان بوصفـه إنسـانا، ولا يقـدر الإنسـان بمفـرده أن يحقـق أي معنـى

مـن معانـي الاسـتخلاف والعمـارة والاسـتفادة مـن مذخـرات الكـون حتـى يقـف أخـوه الإنسـان بجانبـه، فيشـاطره الهـمَّ والعمـل بمـا يتيسـر لـه فعلـه وأداؤه ويتكامـل العمـل النافـع بذلـك. كمـا قالوا:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

وكمـا يقـول علامـة علـم الاجتمـاع ابـن خلـدون رحمـه اللـه: "إن الاجتمـاع الإنسـاني ضـروري" و يعبـر الحكمـاء عـن هـذا بقولهـم "الإنسـان مدنـي بالطبـع" أي لا بـد لـه مـن الاجتمـاع الـذي هـو المدينة في اصطلاحهم و هو معنى العمران.

ولا يتـم هـذا المعنـى إلا باستشـعار الإخـاء الإنسـاني حتـى ينتفـع وينفـع ويفيـد ويسـتفيد، ومـع كـون ذلـك عمـلا اجتماعيـا لضـرورة الحيـاة؛ فإنـه يعتبـر طاعـة ومـن أجـل العبـادات إذا احتسـب المـرء ذلـك العمـل عنـد ربـه سـبحانه، وفـي ذلـك يقـول ﷺ: " المؤمـن يألـف ويؤلـف، ولا خيـر فيمن لا يألف، ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس".

ويقـول ﷺ: " الخلـق كلهـم عيـال اللـه، فأحبهـم إلـى اللـه أنفعهـم لعيالـه" أي فقرائـه، وسـئل رسول الله ﷺ : " مَن خيرُ الناس ؟ قال رسول الله ﷺ : " أنفعهم للناس".

فهـذه النصـوص النبويـة الشـريفة تحـث علـى نفـع النـاس بمسـماهم ناسـا لا بوصـف دياناتهـم، ومنهـا اسـتنبط الفقهـاء وجـوب إغاثـة الملهـوف أيـا كان دينـه مـا لـم يكـن محاربـا لنـا، وذلـك بإطعامـه وحمايتـه كمـا يكـون ذلـك مـع المسـلمين، كمـا قـال ﷺ: "علـى كل مسـلم صدقـة" فقالـوا يـا نبـي اللـه فمـن لـم يجـد؟ قـال "يعمـل بيـده فينفـع نفسـه ويتصـدق" قالـوا فـإن لـم يجـد؟ قـال" يعيـن ذا الحاجـة الملهـوف" قالـوا فإن لـم يجـد؟ قـال "فليعمـل بالمعـروف وليمسـك عن الشر فإنها له صدقة".

ولـو أن كل واحـد انكفـأ علـى ذاتـه واستشـعر العـداء للآخـر، ومنـع خيـره غيـره؛ لـكان فـي ذلـك إضرار كبير بالإنسان، ولأدى إلى التفاني، وقد جرب الناس بعض ذلك بما يسمى بالمقاطعة الاقتصادية التي تلجأ إليها بعض الدول للإضرار بدولة أو شعب مَّا.

فإن الدولة التي تُقاطع وتُمنع الخيرات تصاب بويلات غير متناهية، فتعجز عن تدبير شؤونها، حتى وإن كانت الخيرات غامرة في أرضها، فإنها تعجز عن تحصيلها لعدم توفر الوسائل المعينة لتحصيلها وإنتاجها وصناعتها، مما يدل على وجوب استشعار الإخاء الإنساني حتى يكون الإنسان عونا لأخيه الإنسان.

وقد كان أول حصار اقتصادي عرفه الناس ما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام، ولصحبه الكرام معه، في شعب بني هاشم، لما بلَّغ رسالة الله التي كلف بها، فعاداه قومه، وقاطعوه هو وقبيلته بنو هاشم ومن معهم من المسلمين – عليهم رضون الله – قاطعوهم وحاصروهم في شعبهم ثلاث سنين حتى أكلوا ورق الشجر.

وما كان لهذا الحصار أن يزول إلا باستشعار الإخاء الإنساني ممن كانوا مشركين وعلى دين قومهم المحاصِرين، لكنهم استشعروا الأخوة الإنسانية فقاموا بواجبهم بنقضها حتى رفع الحصار عن بني هاشم.

ومن هنا نعلم أن ديننا الإسلامي دين الإخاء الإنساني، وليس كبعض الديانات التي لا ترى إلا نفسها وأن الناس أجمعين إنما خلقوا لخدمتهم وامتصاص دمائهم وامتطاء ظهورهم، وكما نصت عليه برتكولاتهم القائمة على انكار الأخوة الإنسانية أساساً بين اليهود وسائر الأمم، ويفترض العداء الدائم بين اليهود والطغاة حتى سائر الرعية أو الأمم لاختلافهم عنهم في أصل الطبيعة وأساس الاجتماع .

فعلى المسلمين أن يعيشوا واقع الإسلام ويظهروا الدين المحمدي العالمي بمعانيه الإنسانية والجمالية، كما كان حال سلفهم العالميين الذين فتحوا الآفاق بأنوار الهداية الربانية والأخلاق المحمدية.

وكم تحتاج الدنيا فى يوم الناس هذا إلى هذا الطراز من الرجال ليحموا الحق الذليل وينقذوا

التوحيد المهان ويقروا الأخوة الإنسانية المنكورة، وينزلوا البيض إلى منزلة السود، أو يرفعوا السود إلى منزلة البيض فإنه لا سبيل إلى إنقاذ البشر فى هذا العصر إلا بإثبات الوحي المحمدي الموحّد لإنسانيتهم، المزكي لأنفسهم، والمكمّل لفطرتهم، الذي فيه السعادة الدنيوية والأخروية لهم فى جملتهم، كما قال العلامة محمد رشيد رضا، قال: وقد بينا فى هذا الكتاب " أنّ محمدا رسول الله وخاتم النبيين. وهو المرسل إلى كافة الناس رحمة للعالمين، وأنه هو الذي أكمل الله به الدين، وأزال العصبيات الجنسيّة والوطنيّة. لتوحيد الأخوة الإنسانية، فاتباعه هو الترياق المجرّب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة".

فعلموا يا معاشر المسلمين شعوبكم، أن عصركم هذا عصر يصلح لمبادئ الإسلام التي تجعل من الإنسانية كلها أسرة واحدة، وتدعو إلى الأخوة الإنسانية الصحيحة، القائمة على وحدة العقيدة الحقة، ووحدة النظام الاجتماعي، ووحدة أداة الحكم وأصول الحكم .

فإن الإنسانية الحقيقية، والرحمة الصادقة هي في الإسلام، ولن يجد العالم دعوة إلى الإنسانية الحقيقية مثل الإسلام إلى يوم القيامة، ولا يمكن أن يوجد نظام أرحم بالبشر من نظام الإسلام، وهذا معروف بالضرورة والبداهة، فهو نظام إلهي صادر عن عالم السر وأخفى، دعا إلى الرحمة وإلى الرفق وإلى مكارم الأخلاق، وجعل الإنسان أكرم مخلوق وأفضل من على ظهر الأرض، إذا أطاع مولاه وأدَّى ما أمره به، في القرآن الكريم من الدعوات إلى حسن المعاملة والسلوك الحسن ما لا يجهله أي مسلم.

فقد قال الله تعالى: ﴿...وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾ [البقرة:83]. وقال لنبيه موسى -ﷺ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾، ومع أنّ فرعون أكفر من عُرِفَ على وجه الأرض، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقال عن صفات المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:72]، وقال عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾

إلى آخر ما ذكره الله تعالى عن أوصاف المسلمين وسلوكهم الذي يعتبر نقطة مضيئة في ظلمات هذه الأرض، وغرة في جبين الدهر.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لما ينفع الناس ويمكث في الأرض ويهدي الناس إلى الإخاء الإنساني والتعايش الآدمي حتى يقوموا بواجب الاستخلاف في الأرض على ما يحبه الله ويرضاه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وإخوانه من النبيين والمرسلين.